جامعة حلاول

كلية التربية الفنية

العلاج بالفن: من الطفولة حتى المراهقة

Art Therapy: From Infancy to Adolescence

بحث إعداد

أ. د. / عفاف أحمد
محمد فراج

أستاذ علم نفس التربية الفنية (المتفرغ)

كلية التربية الفنية

جامعة حلاول

أ. د. / مصطفى محمد
عبد العزيز

أستاذ علم النفس ، ومادة تحليل التعبير الفني

لفنون الأطفال والبالغين (المتفرغ)

كلية التربية الفنية – جامعة حلاول

العلاج بالفن: من الطفولة حتى المراهقة

Art Therapy: From Infancy to Adolescence

أ. د. / عفاف أحمد محمد
فراج
أستاذ علم نفس التربية الفنية (المتفرغ)
كلية التربية الفنية
جامعة حلوان

أ. د. / مصطفى محمد عبد
العزیز
أستاذ علم النفس ، ومادة تحليل التعبير
الفنى لفنون الأطفال والبالغين (المتفرغ)
كلية التربية الفنية – جامعة حلوان

مقدمة :

موضوع هذا البحث يأخذ الباحث عبر نمو الطفل بواسطة وصف العمل المتخصص للمعالج بالفن في كل مرحلة من مراحل النمو. إن الجديد في هذا المجال البحثي للعلاج بالفن هو العمل الإبداعي مع الأمهات والأطفال الرضع ودراسة الرابطة الأخوية بين الأطفال الذين يتلقون رعاية فعلية، ودراسة الانتقال بين الأجيال في رعاية القرابة، واضطراب الجنس، والعمل الأسري المتعدد مع الشباب الذين يُعانون عدم اشتهاى الطعام.

إن تفاصيل العملية العلاجية بالفن تأتي بدلالة حية على العلاقة بين المعالج بالفن والأشكال الفنية المنفذة، ومزيد من الموضوعات العامة تشمل:

- ١- قيمة الفن بالنسبة للطفل قبل تعلمه الكلام.
- ٢- الدور الوقائي للعلاج بالفن بالمدارس.
- ٣- نمو التخيل في الأطفال الذين يعانون صعوبة في الانسجام والتوافق، ويتصفون بالعناد الشديد.
- ٤- أهمية العمل مع الأسرة وشبكة العمل المهنية في المؤسسات المختلفة في قطاعات الصحة والخدمات الاجتماعية، والتعليم والعمل التطوعي.

من الباحثين الذين اهتموا بمجال هذا البحث: Caroline Case وهي معالجة تحليلية بالفن تعمل في مجال الأنشطة الخاصة مع الأطفال والبالغين، وهي أيضاً مُعالجة نفسية للأطفال والمراهقين، وتعمل في قسم خدمة الصحة العقلية للطفل والأسرة في المعهد القومي للخدمات الصحية (NHS) في بريستول Bristol. أما Tessa Dalley فهي معالجة بالفن أيضاً وذات خبرة كبيرة ومعالجة نفسية للأطفال والمراهقين، وتعمل في وحدة علاج المراهقين ومركز Anna Freud بلندن. وقد تم التعاون بين هاتين الباحثتين نتيجة اهتمامهما المشترك والمستمر بالعمل مع الأطفال والمراهقين وأسرهم، ولهم كتاب "العمل مع الأطفال في العلاج بالفن":

Working with Children in Art Therapy (1990)

قدم هذا الكتاب ممارسة عملية مبتكرة في ثلاث مجالات رئيسية: التعليم، والصحة، والخدمات الاجتماعية. ونتيجة لجهود الباحثين في هذا الكتاب ثم توسع مؤثر وظاهر للعلاج النفسي بالفن مع الأطفال في نطاقات مختلفة في المملكة المتحدة خاصة المجالات الثلاثة السابق ذكرها.

وصدر لهما كتاب آخر:

Art Therapy with Children, from Infancy to Adolescence

وفي هذا الكتاب عكست فصوله التطورات النظرية والعلاجية في العلاج المعاصر بالفن وممارسته، وتم التركيز على عمليات النمو العادية للطفل في مراحل الطفولة والمراهقة والأخذ في الاعتبار عمل المعالجون بالفن مع الأطفال وأسره، وهذا النموذج التنموي مفيد في فهم كيف أن كل فترة للحياة العقلية تؤثر في الفترة اللاحقة لها في المساهمة في الانتقال من الطفولة المبكرة إلى مرحلة المراهقة، ويعكس إطار العمل في هذا الكتاب تأهيل الباحثين كمعالجين نفسيون بالفن وكمعالجين نفسيون للأطفال والمراهقة، وهذان الكاتبان مرجعان أساسيان في البحث الحالي.

وقبل استعراض مراحل النمو الرئيسية للطفولة والمراهقة نشير إلى أن هذا الاستعراض يوضح دلائل كل التأثيرات التطورية والانتكاسية في فعل التوازن للنمو المستمر والذي يعتبر غير مضمون في ثباته، فعملية النمو لا تحدث بالضرورة بسلاسة، لكن في أغلب الأحوال تمر بطفرات أو انحذارات في أي إنجاز أو تقدم بدني أو شعوري أو معرفي (Stern 1985)، والفشل في إنجاز مرحلة معينة هو دلالة على عرقلة النمو، وهذا ربما قد يكون بسبب صراعات داخلية لدى الطفل أو ربما بسبب عوامل خارجية مثل أزمة ما أو مرض خطير أو سوء معاملة أو غير ذلك، وأيما تكون الأسباب سوف يتلعثم تقدم وتطور الطفل وسوف تطل الصعوبات برأسها في صور مختلفة فتؤثر في السلوك الاجتماعي والشعوري له. كما سوف تؤثر في تعلمه ونموه المعرفيين. بعض الأطفال مثل الذين يواجهون صعوبات في التعلم ربما يكونوا في حاجة إلى مساعدة خاصة للمحافظة على عملية النمو الطبيعية. يعمل المعالج بالفن داخل إطار عمل لفهم دلالة هذه العمليات التنموية ويهتم بالعالم الداخلي للطفل وقضايا الارتباط في العلاقة والخبرات

الطفولية الأولى. كثيرون من علماء نظريات التحليل النفسي مثل Anna و Klein و Winnicott وغيرهم قدموا مساهمات بارزة في فهم تلك المراحل التنموية. إننا أيضاً نُقدّر أهمية تلك المساهمات والتطورات النظرية الجديدة في نظرية الارتباط في العلاقة والبيولوجية العصبية وعلاج "الوالدين للطفل" النفسي، والتي تستمر في إثراء عملنا بالمعلومات القيمة (Case and Dalley 2006) لاحظ عزيزي القارئ أننا نستخدم الضمير "هو" للإشارة إلى الطفل أو المراهق لتجنب أي خلط في المعاني، وفيما يلي مراحل النمو:

والدين وفترة الحمل: The Parents and Pregnancy

عندما تحمل الزوجة يعيش الزوجان حالة من الاستنفار النفسي واحتمال لإعادة تقييم العلاقة بينهما أثناء هذه الفترة، حتى أنها يُعيدان تقييم علاقاتهما وهم أطفال صغار بوالديهما (Raphael- Leff 1993). ففي فترة الحمل كل من الزوجين يرسم صورة تخيلية للطفل المنتظر داخل عالمهما الداخلي. وتشير كل الدلائل البحثية كيف أن الأجنة في بطون الأمهات لديها حسية تجاه الحالة الشعورية للأم واستجابة حسية شديدة للبيئة المحيطة بهما التي ستولد فيها (Piontelli 1992, 2002).

وعندما يُولد الطفل تحدث تغيرات أخرى بينما يصبح الطفل فرد له كيان وتتفرق كل التخيلات السابقة حوله. بالتأكيد هناك بعض العوامل الخارجية ربما تؤثر في الوالدين مثل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والإحساس بالانتماء لمجتمع محلي معين والحالة الصحية والعقلية. داخلياً، سوف تؤثر خبراتهم الخاصة عن كونهما أصبحا والدين في كفاءتهم في رعاية طفلهما.

في مقالة بحثية تحت عنوان "ظلال في الحضانة؟ عام (1975) Fraiberg وآخرون. يبحث هذا الباحث في كيف أن ماضي الأم - خبرتها مع والديها وكذلك خبرتها كأم - يؤثر في وضعها القادم كأم. ذلك الماضي ممكن أن يكون ذو تأثير سييء وسلبي بصفة خاصة إذا كانت هذه الأم المنتظرة عاشت في ماضيها الأسري أزمة شديدة مثل إساءة بدنية أو جنسية أو شعورية مع والديها أو أحدهما. يذكر الباحث Fonagy وآخرون (1975) كيف أن ذكريات المعاناة في الماضي تصبح شكلاً للحماية للطفل المولود الجديد وتحويلها من نماذج سلبية إلى نماذج إيجابية. فالوظيفة الانعكاسية للأبوين أو الوضعية العقلية المسيطرة على فكرهما، يُعبر عنها في

الطريقة التي يعكسون بها خبراتهما النفسية الداخلية ولطفليهما، وكيف أنها تتربط لضمان الانتهاء لدى أطفالهما حتى في الظروف المعاكسة (Baradon 2000 : 17).

الأمهات والأطفال الرُّضّع: Mothers and babies

إن ممارسة متابعة الطفل الرضيع وممارسة العلاج النفسي الذي محوره "الأم - الطفل" و "الأب - الطفل" (Bick 1964; Miller et al. 1989; Reid 1997)، كلها ممارسات عملت على تطور فهمنا لتأثيرات الانتماء المبكر في السنوات الأولى في العلاقة بين الأم والطفل الرضيع (Boelby 1969, 1973; Carlson and Stroufe 1995). فالانتماء يُمثل العلاقة المحورية التي تنشأ بين الطفل ومن يرباه. وصفة هذه العلاقة - أيما كانت - إنما تؤثر في كل جوانب النمو. فالطفل يملك الإحساس بأداء وظيفي قادر في توقعاته بأن كل احتياجاته سوف يتم تلبيتها. والأم بدورها تحاول إحداث توافق شعوري لمتطلبات طفلها. فالطفل يعتمد بشكل مُطلق على من يرباه بدنياً وشعورياً وهذا ما يساعد في نمو نفسي جيد ومتوازن. فالأطفال الرُّضّع شديد الحسية نحو حالات الأحاسيس للأم ويتأثرون بنغمتها الشعورية وبهذه الطريقة يبحثون عن التفاعلات المؤثرة مع الآخرين.

وهذا الاعتماد المُطلق يجعل الطفل غير حصين وعندما تكون رعاية الأم غير كافية (Winnicott 1960) ، أو يكون الاحتواء الأموي ضعيف (Bion 1962)، فإن ذلك ممكن أن يُعرض الطفل إلى سيطرة بعض حالات اللاحيلة عليه. فبدون رعاية أبوية كافية، فإن الحالات الشعورية للطفل تُفسد الإحساس النامي بالذات. فتدريجياً المؤثر على الطفل هو جانب أساسي في فترة بناء الإحساس لدى الطفل بذاته (Schorre 1994) - من هو - والذي - أي هذا الإحساس بالذات - يصبح عملية تنظيم محورية في النمو النفسي (Stern 1985) .

فالارتباطية الاجتماعية الشعورية للطفل مع بيئته الأولى إنما تمثل البناء الذي فيه ينشأ العالم الداخلي للطفل. إن المهمة بالنسبة للأم والطفل الرضيع هي إنشاء علاقة في داخلها يستطيع الطفل الرضيع أن يشعر بالأمان والحماية من أجل أن يتعلم وينمو (Hindle and Smith 1999) . وبينما يحدث ذلك، تنمو تلك المساحة الانتقالية بين الأم والطفل ويبدأ الطفل معاشية خبرة "لي أنا" و "ليست لي أنا" - أو "أنا" و "ليست أنا" كخطوة تنموية هامة. وفي هذه

المساحة تظهر القدرة على اللعب من خلال القدرة الابتكارية الفطرية بالإضافة إلى أن الأم تسمح للطفل بحرية التنقل حسب قدراته كخبرة في الاسترشاد (Winnicott 1971 (1953).

الأطفال في مرحلة تعلم المشي Toddlers:

هي المرحلة ما بين عمر عام واحد إلى عامين وهي تمثل مرحلة أولى خطوات الطفل وأولى الكلمات التي ينطقها وبداية استكشاف البيئة من حوله بعيداً عن الأم. هي مرحلة تحتاج - ويجب في كل المراحل - إلى تعاون الوالدين فيها حيث المرحلة التنموية التي تليها تتجه نحو الانعزال الذاتي وتكوين الشخصية الفردية. هذه المرحلة ممكن أن تكون مرحلة التقلبات المزاجية وخبرات الإحباط مع الاعتمادية والرغبة في السيطرة. في نهاية عامه الثاني، يملك الطفل الإحساس الأولى بجنسه وممكن أن تسيطر عليه ذاتيته الجسمية. ويزداد الإحساس بالاستقلالية من خلال تأكيد الهوية الذاتية من خلال تصور "أنا".

وتتمو اللغة بالتزامن مع القدرة على الترميز، فيبدأ استخدام الكلمات للتعبير عن الاحتياجات بدلاً من لغة البكاء والجسم في بداية طفولته المبكرة. أما اللعب بالأشياء يظل غير مكتسب للمحتوى الرمزي لكن مع الاندماج في الخيالات والتخيل غير الموجه، يبدأ الطفل التركيز على استكشاف الأشياء من حوله بشكل عشوائي طبيعي وفطري وتزداد قدرته على التواجد منفرداً مع شيء ما يلعب به (Winnicott 1958).

في الارتباط بحرية الحركة بعيداً عن الأم، يساعد استخدام الأشياء الانتقالية الطفل في مرحلة تعلم المشي على النمو في عدم حضور الأم في اتجاهه نحو الاستقلالية (Winnicott 1971 : 2 (1953).

أما المنطقة الوسطية للخبرة تمثل إدراك أو مفهوم الانفصالية عن الأم والتي ترتبط بالقدرة على الترميز والقدرة على اللعب. والعلاقة مع الأشياء في المنزل وآخرين من حوله ورعاية والده له، كل ذلك يساعد على اتساع عالم الطفل الذي يتعلم المشي. أما أهمية الرسم والتلوين في جماعات "الأم والطفل" في تناول قضايا الانتماء وإنشاء المساحة الوسطية بين الأم والطفل، هي عمليات يزداد الاهتمام بها من جانب المعالجين بالفن. الباحث (Hosea 2006) ٢٠٠٦ يبين باستخدام الفيديو التفاعل بين الأمهات وأطفالهن في عمليات الرسم والتلوين مع بعضهم البعض وكيف أن هذه العمليات تؤثر بشكل إيجابي في علاقتهم بواسطة بناء خبرة الارتباطية. إن تقنية

تفاعل الفيديو أصبحت من الأجزاء التكاملية في العمل مع "الآباء - الأطفال"، كأداة علاجية حساسة وأيضاً كأداة تُمكن من خلق مساحة انعكاسية إيجابية بالنسبة للأمهات (Woodhead et al. 2006).

إن اللعب هو نشاط متباين لأنه يتضمن اكتشاف حالات القلق والصراع وكذلك استكشاف التخيل والواقع في التجارب الاجتماعية والمعرفية. ففي أثناء اللعب يصنع الطفل المعنى لعالمه. وبينما الطفل الذي يتعلم المشي يُحدد تدريجياً المعنى الرمزي للعب التي يلعب بها، يصبح اللعب أكثر اجتماعية وتفاعلية مع الآخرين.

أولاً: يبدأ اللعب بجوار الآخرين ثم يتحول بعد فترة وجيزة إلى اللعب مع الآخرين تدريجياً. فيبدأ الطفل في مسك الأشياء وتطور الخفة اليدوية له وعمل أولى العلامات على الورق. وفي حين يتعامل الطفل مع البيئة والمواد من حوله، فإنه يستطيع أن يبدأ استخدام مواد الرسم الأساسية مثل الطباشير وغير ذلك. وأولى الشخبطة التي يُنفذها تمثل محاولات إعادة إنتاج نفسه وعالمه (Matthews 1989, 1999). ونمو هذه الأنشطة الابتكارية هو جزء هام في جملة اللعب والذي يساعد الطفل على نمو التخيل لديه وحب الإطلاع والاستكشاف ومعرفته بالعالم من حوله.

بين العام الثاني والخامس للطفل تحدث ثورة التعلم. فالطفل الصغير يتحرك في انفصاله واستقلال ذاته ويكتسب مزيد من المهارات مثل تنظيم مواعيد النوم ودخوله الحمام وارتداء الملابس ومعايشة خبرات المواقف الاجتماعية في اللعب من خلال قاعدة مضمونة في منزله الذي ينطلق منه إلى العالم الخارجي (Bowlby 1988). فالحياة الاجتماعية تتسع خاصة مع جماعات اللعب ومن يرعونه غير والديه مثل إخوته وأخواته وأقاربه وأصدقائه، حيث يصبحون جميعهم ذوي أهمية له. ومع تزايد الوعي بالآخرين من الأطفال والبالغين، تنشأ لدى الطفل أحاسيس المنافسة والصراع والغضب ومواجهة صعوبة في الانتقال لمرحلة تالية في فقدان التدرجي للعلاقة اللصيقة مع الأم. وفي خضم ذلك يتحسن التحكم الحركي لديه وبالتالي يتحسن ما يبذله من جهود في رسم شيء ما على المستوى التعبيري التجسدي. وربما تكون أولى المحاولات في رسم دائرة أو وجه إنساني يتخيله (Dubowski 1990).

للمعالجين بالفن مساهمة هامة في العمل مع الأطفال تحت سن الخامسة. فالطفل قبل تعلمه الكلام تظل قدرته على الاتصال وتوصيل أحاسيسه غير لفظية بشكل كبير من خلال السلوكيات مثل البكاء والانسحاب والقضم والعض وغير ذلك. والخطوات الأولى في إعطاء المعنى لهذه الحالات الشعورية لها أهميتها ويمكن تسهيلها من خلال الاندماج مع المواد الفنية والرمال والماء واللعب.

عقدة أوديب The Oedipus Complex:

إن المرحلة الأوديبية وحلها تمثل أهمية بالنسبة لنمو الطفل حيث أنها تشمل إظهار العلاقة الشعورية الكثيفة مع الأم. فمن الناحية الكلاسيكية، يتلاشى تناقض ومناهضة الولد نحو والده بتقبله والده هذا كأب يتوافق معه شعورياً. بالنسبة للبنات، في مرحلة انتقالها بعيداً عن الأم نحو علاقة شعورية مع الأب، فإن تخيله كشريك يمكن من تحديد هويتها مع الأم. في الآونة الأخيرة هناك وجهة نظر ناشئة بأن دلالة الحل الأوديبى تقع في الإدراك بالنسبة للطفل بأنه عضو في علاقة من ثلاث أشخاص مع كل من والده ووالدته. أما بالنسبة للطفل في أسرة فردية العائل - الأب أو الأم - تكون فكرة العلاقة الأبوية ذات أهمية. من خلال حل هذه المرحلة المليئة بالصراع، يتجه الطفل بعيداً عن الأبوين ليركز على علاقات الأقران الخارجية وتعلم مزيد من المهارات الجديدة التي تبني المشهد للدخول في مرحلة فعلية للكمون. عندما لا يكون هناك حل لصراعات المرحلة الأوديبية، تظل العلاقة بين الأم والطفل متشابكة ومضطربة في اتجاهها نحو نمو الطفل، مع بعض من النتائج الخطيرة لها مثل التأخر في دخول مرحلة الحلم أو بعد ذلك في مرحلة المراهقة.

مرحلة الكمون Latency:

بين العام الرابع والخامس تأتي مرحلة الانتقال من المنزل إلى المدرسة. ومرحلة الكمون التي تقليدياً تبدأ بظهور جماعة الأقران فيها، تمتد تقريباً من سن الخامسة إلى سن الحادية عشرة على الرغم أن بعض الفتيات يبلغونها مبكراً. في أثناء هذه المرحلة، فإن أحاسيس عقدة أوديب تبقى كامنة في حين يجمع الطفل المصادر في الإعداد للتغيرات النفسية الجنسية الرئيسية وصولاً إلى مرحلة البلوغ. وبوادر هذه المرحلة تكون تدريجية (Waddell 1998:74)، حيث أن رواسب حياة الطفل تتواتر عند هذه النقطة الانتقالية للتغير وتبقى داخل الشخصية: فجودة الجهد والحل

الذان يسبقان هذه المرحلة يقعان في قلب قدرة الطفل على التغير والتكيف والتوسع الاجتماعي والنفسي: بمعنى أن يتعلم وينمو في بيئة جديدة (Edwards 1999: 71). وفترة الكمون يُنظر إليها على أنها فترة توقف مؤقتة لنشوء العملية الجنسية. وإعادة تنظيم الدفاعات الداخلية ضد أحاسيس التشوق لدى الطفل، تعطي فترة الكمون معنى الاستقرار. إن المكونات الجنسية لعقدة أوديب تدخل في الأحاسيس الاجتماعية وفي بناء العوائق ضد الجنسية.

تهذيب النفس - أحد الدفاعات الهامة في مرحلة الكمون - هي عملية تقع في قلب عملية تكوين الرمز والنمو النفسي حيث تتحول طاقات الشهوة الغريزية والدوافع المحركة إلى حب التعرف على العالم والبحث عن التعلم. في عام (1965) Winnicott إلى عملية التهذيب للنفس على أنها "انقسام معاون إلى أجزاء، وهي عملية أساسية في حدوث التعلم. وهذا يساعد في الحفاظ على خبرة جيدة للزوجين ويسمح للطفل الانطلاق نحو مرحلة تالية.

فترة الكمون هي فترة التكامل الاجتماعي وتكوين جماعة الأقران، ويتكون كيان داخلي لعلاقات الانتماء فتصبح نماذج عمل، واجتماعياً يحدث انتقال من الانطواء حول الذات إلى الصحبة. في تعبيرات علاقات الشيء، هذا يتطلب انتقال من الاعتمادية إلى استثمار الشهوات في الأفراد خارج الأسرة والمثاليات والاهتمامات.

ففي مرحلة الكمون يوجد عطش للمعلومات والحقائق وقوائم أشياء كثيرة (Meltzer 1973). فمن العادي أن تكون هناك هوايات وجمع نوعيات من الأشياء مثل اللعب، والتشبيه بالأبطال والمشاهير وتمثل جانب رئيسي لدى الأولاد والبنات. في هذا الوقت يميل الأطفال إلى اللعب مع جنسهم الخاص - الأولاد مع الأولاد والبنات مع البنات - مع أهمية للقواعد وإدراك جيد لما هو خطأ وما هو صواب. إن تهذيب الأحاسيس الجنسية ممكن رؤيته في ألعاب الأطفال حيث أنها تصنع الإحساس بحدود الجسم في الاستعداد للدخول في مرحلة الحلم.

إن فترة الكمون ممكن أن تكون عالية الابتكارية بالنسبة لكل من الأولاد والبنات في قدراتهم على الرسم والتلوين والأداء والمحاكاة وعزف الموسيقى. من الناحية التقليدية، الرسومات في مرحلة الكمون هي رسومات تتال قدر من العناية، خاصة من الناحية الالتزام بالقواعد والنواحي التشكيلية. الكثير من المعالجون بالفن يعملون مع أطفال هذه المرحلة في المدارس مع فريق خدمات الصحة العقلية للأطفال والمراهقين "CAMHS" والخدمات الاجتماعية، أو في

الممارسات الخاصة. والصور أو الأشكال الفنية لهؤلاء الأطفال تساعد على المستوى الرمزي في توصيل الكثير من الصراعات وحالات القلق التي من الصعب التعبير عنها بالكلمات. فالخيال ممكن أن يقدم نافذة هامة لهم، أما الانتكاسة في كل المراحل ممكن أن تعطي الطفل انفراجة نفسية مؤقتة من ضغوط مرحلة عمرية معينة. بعض الأطفال ربما ينتكسون ويكون من الصعب بالنسبة لهم أن يندمجوا في مرحلة الكمون بسبب ضعف الخبرة أو إغلاقها. أما التحديات التي تأتي من العالم الخارجي ممكن أن تكون مُقلقة وفي نفس الوقت باعثة. أيضاً الأحاسيس الداخلية ممكن أن تكون خطيرة وصعب توظيفها والسيطرة عليها. وهذا ممكن أن يؤدي إلى تملك الخجل الشديد من الطفل أو حالة من الوسوسة الواضحة مما يعوق الطفل من البحث أو أخذ المبادرة ويحد من جانب التخيل للذات.

يشرح لنا Reddick كيف أن الاضطرابات في مرحلة الكمون ممكن أن تؤثر في عملية التعلم، وكيف أن القضايا المتعلقة بالجنس تتفاعل والمشاحنات داخل حجرة الدراسة ككل، تُمكن من الفهم الجيد لتلك المرحلة إن سنوات مرحلة الكمون الناجحة ممكن أن تعطي قوة داخلية لفهم ما يمكن أن يظهر من صراعات في مرحلة المراهقة.

مرحلة المراهقة Adolescence:

إن المراهقة هي مرحلة الانتقال والتغير والخبرات الشعورية الكثيفة، وهي مرحلة عمرية لها دور حاسم في نمو الشخص ككل، خاصةً في نموه في مرحلة الرجولة. وفي حين تبدأ خبرة كل مراهق في إظهار ضغطها في بعض الوقت، فالسؤال هنا كيف يتعامل المراهقون مع هذا الضغط سواء أكانت سلوكياتهم أو حالات قلقهم عادية أم تحمل دلالات على اضطراب نفسي أكثر خطورة.

إن المراهق في هذه المرحلة يبدأ الانفصال عن العلاقات الأولية، وهويته الذاتية تبدأ في التكوين وهي مرحلة ممكن وصفها بالتخبط الشعوري والضغوط والأزمات. فالجسم يمر بتغيرات متسارعة ونصفها بأنها مخيفة بقدر ما هي مثيرة. إنها مرحلة المقارنة بين أحجام نمو أعضاء الجسم والمخاوف من الحالات الاجتماعية والجنسية غير المألوفة.

"Blos" (1967) يصف مرحلة المراهقة على أنها "عملية التفرد الذاتي الثانية". العملية الأولى اكتملت في نهاية العام الثالث من عمر الفرد، حيث ينتقل من مرحلة الرضاعة إلى تعلم

المشي إلى بداية معرفة ذاته ليخرج بعد ذلك كعضو في المجتمع الأكبر إلى مرحلة أكثر استقلالية ذاتية، فالمرحلة تخبّرنا عن الحالات الطفولية الأولى للعقل والأحاسيس الجنسية. فالفشل في تكوين الصداقات والعلاقات يُعاد ويشعر به الفرد بدقة شديدة مرة أخرى عندما يصبح هذا الفشل قضية ضاغطة. فكما في مرحلة الطفولة المبكرة، تكون هناك حاجة إلى وجود شخص بالغ له قدرة على الاحتواء ربما تتأثر بالصعوبات التي لم تجد حلاً في مرحلة المراهقة لهما (Blos 1967 : 163). فالمرهق الذي هو الآن يملك القدرة على الأداء الوظيفي الجنسي، يتولى مسئولية جسمه المتغير وأيضاً عقله.

إن خصوصية أفكار المراهق وأحاسيسه تحمل قدسية خاصة بالنسبة له من أجل أن يجد المسافة الصحيحة بعيداً عن الكبار من حوله لكيفية تصرفه في مثل هذه التغيرات واكتساب مخرج له يُبعده عن أحاسيس الطفولة ومخرج لمواجهة ضغوط مرحلة الرجولة. وهناك ضغوط إضافية تقع على عاتقه من خلال الأهداف المطلوب تحقيقها في التعليم ونواحي الحياة الأخرى، وهناك ضغوط تنتج عن عدم فهم تغيراته من جانب بعض الكبار من حوله وهي شائعة.

كثير من المراهقون الذين يبقون على نواحي إشكالية كامنة من مرحلة الطفولة يفشلون في التعامل مع متطلبات المراهقة. وتحديات التعامل مع هذه الضغوط ممكن أن تؤدي إلى انحسار الوسائل المبكرة في إدارة المواقف ممكن يُعجل من الفشل إن لم يتم مواجهتها بالشكل الصحيح. فالمرهق يتعرض لمواجهة عدد من القوى التي لا يملك السيطرة عليها. كل من Laufer و Laufer (1968) ألقيا الضوء على بناء التنظيم الجنسي النهائي، حيث يذكر أنه الوظيفة التنموية الرئيسية للمراهقة. ويتجسد التأخر ذاته في العلاقة مع الجسم ومن خلال الرفض اللاشعوري لتجسيد الجسم جنسياً. فبعض الجسم الآن ممكن أن يتجه نحو فعل ضد الذات أو ضد الآخرين والذي ينتج عنه اضطرابات مثل محاولات الانتحار أو الانحراف أو إدمان المخدرات والكحوليات أو انعدام الشهوة. فالأحاسيس المكروهة والعدائية والمختلطة يعبر عنها من خلال سلوكيات حادة مثل إدمان الكحوليات وتعاطي المواد المخدرة والعنف وتقلبات الحالة المزاجية والإيذاء البدني وغير ذلك.

فالمبادرة بمثل هذه الأفعال ممكن أن تكون شديدة الخطورة خاصة مع افتقاد أو ضعف وظيفة ضبط الذات. فالمرهق الذي كانت انتماءاته المبكرة ضعيفة أو مضطربة بدون رعاية أبوية كافية، فإنه لا يملك قاعدة مضمونة شعورياً من خلالها ينتقل إلى مرحلة الاستقلالية.

بالنسبة للطفل المتبني الذي تقطعت علاقته مع أمه الذي ولدته، فإنه يستقل عن والديه بالتبني بحثاً عن أمه مرة أخرى وهذا مؤكد يكون جزء أساسي في بناء هويته.

بشكل تدريجي تصبح جماعة الأقران المختلطة محورية وتشكل الخلفية لنمو الهوية الشخصية والجنسية. والفشل في الخبرة الأكثر استقراراً في مرحلة الكمون يحل محله أحاسيس عدم الأمان واللاتوجه مع إحساس مذبذب بالذات.

Meltzer (51 : 1973) يصف عالم المراهق بأنه بناء اجتماعي، سكانه خليط من السعادة والتعاسة يعيشون بين اللااستقرار لمرحلة الكمون والاستقرار داخل حياة الكبار. ويصف الباحث أيضاً كيف أن محور الجاذبية لخبرة الهوية الشخصية تتحول بشكل واسع داخل نفس الشخص. وفي الجماعة، كثيراً من جوانب الذات تظهر في أعضاء الجماعة المختلفون. والمراهق ممكن أن يجد انفراجة نفسية من الأجزاء المختلفة للشخصية والتي ربما تكون متناقضة، حيث أنه من الصعب التفرقة بين الخبرات الداخلية ومثيلاتها الخارجية، بين أحاسيس الطفولة وأحاسيس الشخص البالغ، وبين ما هو جيد وما هو سيء، وبين الأنثى والذكر.

إن استخدام الجماعة في مرحلة المراهقة المتوسطة يؤدي نفس الوظيفة التي تؤديها العلاقة مع صديق من نفس الجنس في المراهقة المبكرة. ولأن محاولات الحصول على القبول من الوالدين لم تعد فعالة، فإن المراهق يتجه نحو جماعة الأقران، لكن عليه أن يتصرف بطريقة تكون مقبولة لديهم.

والمراقبة من جان بجماعة الأقران هي ذات أهمية وأن التوافق مع هوية الجماعة يساعد في بناء الهوية الخارجية في حين تكون العمليات الداخلية في حالة انسياب. ويذكر Meltzer (1973) في كتاباته عن المراهقة ، أن جماعة الأقران بغض النظر عن ماهيتها أمام عالم الكبار، هي الوعاء الذي يجمع بين العمليات المختلفة. أما Deutsch (1968) يقترح أن المراهقين ممكن أن يمثلوا "محاكاة تبادلية" أو يشكلون هوية جماعية في صورة "نحن". إن حياة الجماعة تمثل مكاناً مستقلاً ولكن أيضاً تُقدم الغطاء لحالات التوترات.

كثيراً من خصائص حياة المراهق نجدها في رواية "روميو وجولييت" لـ Shakespeare. فعصابات المراهقين تجد المتعة في انتهاك الجماعة وإثارة المشكلات والذي يعطي لهم نطاقاً حراً للدوافع الجنسية والعدائية. فالمحبين الشباب يبحثون عن "الآخر" الذي يمثل المجهول كجزء

غير محقق للذات: خبرة الوقوع في الحب. فعلاقات المراهق تزداد عمقاً بالتدريج وتصبح مبنية على حميمية حقيقية مع حب الآخر لأنه يمثلته هو. فمن العادي أن يكون هناك مجهول في التوجه الجنسي، ومع كثرة التجارب يستقر المراهق في النهاية على شريك من جنس مخالف أو من نفس الجنس. وهناك صعوبات خاصة في هذا التنظيم الجنسي النهائي بالنسبة لهؤلاء الأطفال الذين واجهوا معاملة سيئة جنسياً، وعندما يسود الجزء التدميري في الشخصية، فإن العلاقات الملتوية تجد طريقاً لنموها.

يعمل المعالجون بالفن مع المراهقين أفراد وجماعات في منشآت علاجية مقيمة أو ليوم واحد. والصراعات الداخلية ممكن التعامل معها من خلال الصور والتي تساعد في صنع معنى للأفكار والأحاسيس التي يُنفر منها أو التي تتفتت في صور أفعال مختلفة أو تنعكس. إن مخاوف المراهق من كونه خارج السيطرة مع خيالات معينة وحالات توتر، تظهر جميعها في الأعمال الفنية وتأتي داخل العلاقة العلاجية (Tyson and Tyson 1990).

References:

- Baradon, T. (2000) *The Practice of Psychoanalytic Parent-Infant Psychotherapy: Claiming the Baby*. London: Routledge.
- Bick, E. (1964) Notes on infant observation in psychoanalytic training. *International Journal of Psychoanalysis*, 45: 558-66.
- Bion, W.R. (1962) *Learning from Experience*. London: Heinemann.
- Blos, P. (1967) the second individuation process of adolescence, *Psychoanalytic Study of the Child*, 22: 163-85.
- Bowlby, J. (1969) *Attachment and Loss. Vol. 1: Attachment*. Academic Press.
- Bowlby, J. (1973) *Attachment and Loss, Vol. 2: Separation*. London> Hogarth.
- Bowlby, J. (1988) *A Secure Base: Clinical Applications of Attachment Theory*. London: Routledge.
- Carlson, E. and Stroufe, L.A. (1995) Contribution of attachment theory to developmental psychopathology, in D. Cicchetti and D.J. Cohen (eds) *Developmental Psychopathology, Vol. 1: Theory and Methods*. New York: Wiley.
- Case, C. and Dalley, T. (eds) (1990) *Working with Children in Art Therapy*. London: Routledge.

- Case, C. and Dalley, T. (2006) *The Handbook of Art Therapy*, 2nd edn. London Routledge.
- Copley, B. (1993) *The World of Adolescence: Literature, Society and Psychoanalytic Psychotherapy*. London: Free Association Books.
- Dalley, T. (1993) Art psychotherapy groups, in K. Dwivedi (ed.) *Group Work with Children and Adolescents: A Handbook* London: Jessica Kingsley.
- Dalley, T. and Kohon, v. (in press) Deprivation and development: the predicament of an adopted adolescent in the search for identity, in D. Hindle and G. Shulman (eds) *Psychoanalytic Approaches to Adoption*. London: Routledge.
- Deutsch, H. (1968) *Selected Problems in Adolescence*. London: Hogarth.
- DfES (Department for Education and Skills) (2003) *Every Child Matters*. London: DfES.
- Dubowski, J. (1990) Art versus language: separate development during childhood, in C. Case and T. Dalley (eds) *Working with Children in Art Therapy*. London: Routledge.
- Edwards, J. (1999) Kings, queens and factors: the latency period revisited, in D. Hindle and M.V. Smith (eds) *Personality Development: A Psychoanalytic Perspective*. London: Routledge.
- Fonagy, P., Steele, M., Moran G., Steele, H. and Higgett, A. (1992) Measuring the ghost in the nursery: an empirical study of the relation between parents' mental representations of childhood experiences and their infants' security of attachment, *Journal of American Psychoanalytical Society*, 41(4): 957-89.
- Fraiberg, S., Adelson, E. and Shapiro, V. (1975) Ghosts in the nursery: a psychoanalytical approach to the problem of impaired infant-mother relationships, *Journal of American Academy of Child Psychiatry*, 14: 387-422.
- Freud, A. (1965) *Normality and pathology in Childhood*. New York: International Universities Press.
- Hindle, D. and Smith, M.V. (eds) (1999) *Personality Development: A Psychoanalytic Perspective*. London: Routledge.
- Hosea, H. (2006) 'The Brush's Footmarks': parents and infants paint together in a small community art therapy group, *International Journal of Art Therapy: Inscape*, 11(2).

- Laufer, M. and Laufer, M. (1968) The body image, the function of masturbation and adolescence; the problems of the ownership of the body, *Psychoanalytic Study of the Child*, 23: 114-37.
- Matthews, J. (1989) How young children give meaning to drawing, in A. Gilroy and T. Dalley (eds) *Pictures at an Exhibition: Selected Essays on Art and Art Therapy*, London: Routledge.
- Matthews, J. (1999) *The Art of Childhood and Adolescence: The Construction of Meaning*. London: Falmer Press.
- Meltzer, D. (1973) *Sexual States of Mind*. Strath Tay: Clunie Press.
- Miller, L., Rustin, M., Rustin, M. and Shuttleworth, J. (eds) (1989) *Closely Observed Infants*. London: Duckworth.
- Murray, L. (2005) *The Social Baby*. London: CP Publishing.
- Piontelli, A. (1992) *From Fetus to Child: An Observational and Psychoanalytic Study*. London: Brunner-Routledge.
- Piontelli, A. (2002) *Twins from Fetus to Child*. London: Routledge.
- Raphael-Leff, J. (1993) *Pregnancy: The Inside Story*. London: Sheldon Press.
- Reid, S. (ed.) (1997) *Developments in Infant Observation: The Tavistock Model*. London: routledge.
- Schore, A. (1994) *Affect Regulation and the Origin of the Self: The Neurobiology of Emotional Development*. Hillsdale, NJ: Laurence Erlbaum.
- Stern, D. (1985) *The Interpersonal World of the Human Infant*. New York: Basic Books.
- Tyson, P. and Tyson, R.L. (1990) *Psychoanalytic Theories of Development: An Integration*. New Haven, CT: Yale University Press.
- Waddell, M. (1998) *Inside Lives: Psychoanalysis and the Growth of the Personality*. London: Duckworth.
- Winnicott, D.W. ([1953] 1971) *Transitional Objects and Transitional Phenomena in Playing and Reality*. Harmondsworth: Penguin.
- Winnicott, D.W. (1958) *The Capacity to be Alone in the Maturation Processes and the Facilitating Environment*. London: Hogarth.
- Winnicott, D.W. (1960) The theory of the parent-infant relationship, in D.W. Winnicott (ed.) *The Maturation Process and the Facilitating Environment*. New York: International Universities Press.

Winnicott, D.W. (1965) *The Family and Individual Development*.
London: Tavistock.

Woodhead, J., Bland, K. and Baradon, T. (2006) Focusing the lens: the use of digital video in the practice and evaluation of parent-infant psychotherapy, *Infant Observation*, 9(2): 139-50.